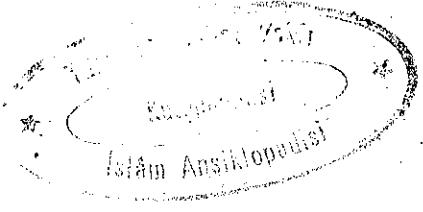


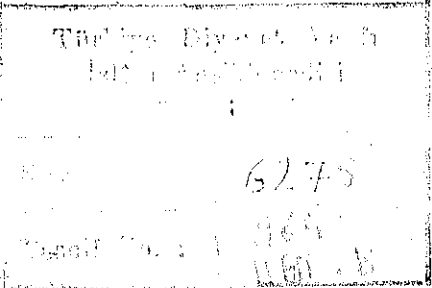
١١٥٢



الدكتور ابراهيم خلف العبيدي
كلية الآداب - جامعة بغداد
المنتدب التدريسي في
كلية الآداب - جامعة القاضي عياض
مراكش

البرغواطيون في المغرب

127 - 542 هـ



برغواطة

الطبعة الأولى 1983

أما البكري الذي عاصر الدولة في سنينها الأخيرة فقد استمد معلوماته من سفير البرغواطين إلى الحكم المستنصر سنة 352 ويُدعى أبو صالح زمور بن موسى بن هشام بن وارديزن . ولم يلتق البكري به بل سمع عن شخص آخر كان مترجماً للسفير وهو أبو موسى عيسى بن داود بن عشرين السطاطي من أهل شالة . وهو مسلم من بيت خير بن خير (1) . واستند البكري إلى شخص آخر هو فضل بن مفضل بن عمر المدحجي ، ولم يحدد لنا هويته . وهناك تضارب بين الروايين لم يحاول البكري تحقيقهما أو تفضيل أحدهما على الأخرى .

وأخذ عن البكري المؤرخون الملاحقون (2) دون إضافات بل حاول بعضهم التوفيق بين روايتي زمور والمدحجي . ولم يدل المؤرخون المشاركة بذئهم في هذه المسألة بل أحجموا عن الكتابة عنها .

وقد حاول بعض المؤرخين المحدثين (3) الخوض في غمار هذا الموضوع لمعرفة أصول عقيدة البرغواطين ودورهم السياسي ومن أبرزهم الدكتور محمود اسماعيل . الذي كتب دراسة جيدة عن المسألة البرغواطية نشرها في كتابه (مغربيات . دراسات جديدة) . وقد جمع نصوصاً كثيرة عن هذه المسألة ، وناقش الذين حاولوا جعل الديانة البرغواطية نتاجاً لعقائد هيلينية أو يهودية أو مسيحية وفند هذه الآراء بروح علمية . وأكد أن دراسات المحدثين لقيت مزيداً من الغموض حول المسألة البرغواطية . غير أنه وقع في نفس الخطأ وأضاف غموضاً جديداً ، ومصدر هذا الغموض والاضطراب في دراسته أنه تبني فكرة (صفرية العقيدة البرغواطية) من الأساس وأراد الوصول إلى هذه الفرضية التي يعتبرها حقيقة

ظهر البرغواطيون على المسرح السياسي في أوائل القرن الثاني الهجري واستمروا حتى منتصف القرن السادس الهجري . ولعبوا دوراً فعالاً في الحياة السياسية المغربية . فلم يتمكن الأدارسة ولا الدول الأخرى التي ظهرت في المغرب من القضاء عليهم حتى ظهر الأرابطون . فمن هم ؟ وما هي عقيدتهم ؟ وكيف ولماذا صمدوا بوجه أعدائهم ؟ ما هي علاقتهم بالدول الأخرى ؟ أنها أمور يكنتها الغموض والتناقض .

إن هذا الغموض والتجاهل من قبل المؤرخين القدامى يفرض واجباً على المؤرخين المغاربة بشكل خاص والمؤرخين العرب بشكل عام البحث بشكل علمي وموضوعي للكشف عن الحقيقة وإزالة الغموض ، غير أن الذي يتصدى لهذا الموضوع في الوقت الحاضر يلقى عدة صعوبات ، منها عدم وجود كتابات تاريخية تعبر عن وجهة نظر البرغواطين فهي في طي الكتمان . والمصادر القديمة تعبر عن وجهة نظر معادية إلى جانب الاضطراب . أما الكتابات الحديثة فقد زادت المشكلة تعقيداً لكثرة التفسيرات التي لا تستند في كثير من الأحيان إلى أسس صحيحة .

إن المصدرين الأساسيين عن البرغواطين واللذين نقل عنهما القدامى والمحدثون هما ابن حوقل والبكري . فالأول شاهد عيان زار المنطقة في منتصف القرن الرابع الهجري ، وسجل أخبار عقيدتهم ووصف طباعهم وصفا أفاد في تصحيح بعض المعلومات . إلا أنه دون معلوماته على عجل وبعضها سمعها من آخرين ، لذلك جاءت معلوماته خاصة فيما يتعلق بالعقيدة مضطربة .

بأية وسيلة ، فجمع النصوص التي تخدم هدفه وحمل النصوص الأخرى أكثر مما تتحمل ودون الأخرى ناقصة إذا لم تسعفه . ومن المعروف في الدراسات التاريخية أن الخطأ في البداية يقود إلى الخطأ في النهاية . وسأحاول إيضاح هذا الاضطراب خلال البحث . ولكن هذا لا يعني التقليل من أهمية الدراسة . فهي أول دراسة جامعة متكاملة عن الموضوع .

وسأحاول في هذه الصفحات استقراء تاريخ البرغواطيين محاولا التعرف على عقيدتهم ، وسني حكم أمراءهم ، ونشاطهم مما يتوفر من مصادر ومراجع .

اختلف المؤرخون حول اسم برغواطة . هل هم من زناتة ؟ أم خليط من العناصر . أم أنها تسمية لا تمثل قبيلة بعينها .

فيرى البكري أن إقليم تامسنا كان مرتعا لقبائل زناتة وزواغة (4) . ونجم عن هذا التصور خلاف المؤرخين اللاحقين حول أصل البرغواطيين . فصاحب كتاب الاستبصار يقول أنهم (كانوا قوما جهالا من زناتة (5)) . ولم ينسبها ابن عذاري لزناتة وأكد أن برغواطة من قبائل البربر (6) . كذلك ابن حوقل فإنه قال (قبيلة برغواطة من قبائل البربر على البحر المحيط (7)) .

ويرى البعض الآخر ، بأنه لم يكن اسما لقبيلة معينة يجمعها أصل واحد أو أب واحد بل كان اسما لخلط من البربر اجتمعوا على شخص يهودي الأصل ادعى النبوة وهو صالح بن طريف بن شمعون البرباطي نسبة الى الموطن الذي نشأ فيه وهو برباط بالقرب من شريش جنوب الاندلس . وسمي من أتبع هذا الدين بربطي نسبة الى بربط ، فعربت العرب هذا الاسم وقالوا برغواط وبرغواطي وأضافوا اليها هاء الجمع فصارت برغواطة (8) . ويضيف ابن حجية أن الاسم الحقيقي بلغواطة ، وأن مفردة برغواطة باللام بدل الراء ، وأن العامة يخطئون فيها فيقولون برغواطة (9) . ويبدو أن هذا المبرر للتسمية جاء من حيث الصورة اللفظية .

ويخالف ابن خلدون هذا الرأي الذي أورده عن صاحب كتاب نظم الجواهر . مؤكدا بأن برغواطة قبيلة من المصامدة ،

وهم الجيل الأول منها . وكانوا المتقدمين منهم قبيل الاسلام ، وكان لهم في صدر الاسلام التقدم والكثرة وكانوا شعوبا كثيرة متفرقين وكانت مواطنهم في بسائط تامسنا وريف البحر المحيط من سلا وأزمور وأنفى وأسفي . وكان كبيرهم لأول المائة الثانية من الهجرة طريف أبو صالح . ويضيف ويعلما بعض الناس في نسب برغواطة هؤلاء فيعدهم من قبائل زناتة وآخرون يقولون في صالح أنه يهودي وهو من الأغاليط البينة وليس القوم من زناتة ويشهد لذلك كله موطنهم وجوارهم لأخوانهم المصامدة . أما صالح بن طريف فمعروف فيهم وليس من غيرهم ولا ينتم الملك والتغلب على النواحي والقبائل المنقطع جذمه دخيل في نسبه (10) .

ويحسم هذا النص الخلاف حول أصلهم . غير أن قول ابن خلدون أنهم شعوب كثيرة متفرقة وإشارة المؤرخين الآخرين الى أن برغواطة ليست اسما لقبيلة معينة دفع البعض أمثال عبد الوهاب بن منصور الى التأكيد بأن الكلمة ليست لها دلالة سلالية وإنما نذل على نحلة دينية أطلقت على القبائل التي اتبعنها فقبل لها برغواطة كما يقال للشيممة والخوارج والمعتزلة (11) . وهو رأي جدير بالملاحظة .

غير أن نص ابن خلدون الصريح واعتماده من قبل عدد من المؤرخين يجعلنا نميل اليه لأنه أقرب الى المنطق إذ لا يمكن لهذه القبائل الخضوع لسلطة صالح ، كما أن المؤثرات البرغواطية ظلت واضحة في مناطق المصامدة . ويؤكد ذلك الدكتور ابراهيم حركات بقوله : اني أرجح تأكيد ابن خلدون لأن بعض المؤثرات البرغواطية ظلت حتى يومنا هذا في بعض مناطق المصامدة الجنوبية مثل كراهية أكل البيض ووجود عدد كبير من المتصلين في العرافة والسحر والاعتماد على